شذى الزهور
من أيام السرور

للكاتب

الحسن تيتو بلالي

" إهداء"

أمي الحبيبة

إني لأستمح العذر منك

لأنني مهما فعلت

فلن أوفيك حقك.

تقديم :

الحمد لله رب الناس، العاصم أنبيائه من الوسواس الخناس ،الشاكر من شكر ،ومعذب من كفر ،والصلاة والسلام على خير البرية ،وقوام السنة البشرية، محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن شكر سعيه وهداه.

وبعد فإن شذى الزهور من أيام السرور

قطعة نثرية للكاتب الحسن محمد الأمين ، يسرد فيها تسلسلا واقعيا خياليا، بدأها بتحضيره للباكلوريا وما لاقى من عوائق السيكولوجية وسيسيولوجية لبلوغ مرام الشهادة ،وصولا إلى الجامعة ،التي فتحت كوة جديدة في حياته ومسيرته العلمية ،حيث التقى بخلاء وخليلات جدد ،فتحوا أمامه مصاريع ،غيرت حياته جزئيا.

كانت أم الزهراء بطلة هذه القطعة وقد أقحمته في صراع إيديولوجي مآله الحظر رقميا،وشفاعة صديقتها بإلغائه عنه ،لتشتد الحياة وتسود عليه بكل تجلياتها

تطورت الأمور وأخذت منحى جديدا بعد نبإ خطبة أم الزهراء ،الذي شكل مطرقة، هدَّت أماني كانت مرجوة مدفونة ،وكأن لسانه يقول لخطيبها: مبارك أنا حلمت وأنت حققت "

ولكل بداية نهاية ،وأرجو أن أكون قد وُفقت في لفِّ وطي ما فُصِّلَ في العرض، وما هذه إلا نبذة مختصرة عنه.

كتبه : سيداتي حمود ،طالبة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ،مسلك الدراسات العربية 18/2/2022.

لقد أطلتني سنة الباكالوريا وها هي تلملم حقائبها كي تنزل ضيفا علي، وكنت حينها في وجل مما سألقى في تلك السنة، ففزعت إلى المراجعة والمطالعة الدؤوبتين حيث كنت أستيقظ عند الساعة 03:00 ليلا للمراجعة وذلك بإشارة من أحد أساتذتي حفظهم الله.

وما إن أعلنت اللجنة المكلفة بالنتائج نتائج المسابقة حتى تصدرت المرحلة الأولى على مستوى المقاطعة ففرحت بذلك جذلاً شديداً، وفرح كل من حولي من أهلي وأصدقائي كذلك، وجاءتني منهم التهاني والذين عسر عليهم ذلك أرسلوا إلي التهاني على الهاتف وبعضهم الآخر أرسل إلي رسالة ورقية. ولما وضعت أيام التهاني أوزارها وخرجت الاستمارات واجتبيت التخصص الذي أحب شرعت في التهيء للسفر إلى مدينة نواكشوط (العاصمة) حيث الجامعة التي سأدرس فيها، ولكنني في خضم تلك الأجواء كنت أشعر بفرح وحزن متنازعين عندما أتذكر أنني سأذهب إلى الجامعة وألتقي بأساتذة جدد وأصدقاء كذلك ومحيط جديد، وجو جديد وعندما أتذكر أنني سأفارق والدتي، تلك المرأة العظيمة التي بذلت كل شيء في سبيل أن أكون شابا ناجحا في الحياة وأختي وأصدقائي وزرابيب حارتي يغشاني حزن عريم، لكنني لا أجدُ بدّاً من الذهاب وربما رأيت علامات الحزن والأسى على وجه أمي المهيب فأقول لها: ما هذا الجزع يا أماه؟! فتقول لي وهي كظيمة يا بني: إنه ليحزنني أن تذهب

إلى الجامعة فأقول لها: أما ترضين أن لا أذهب إلى الجامعة أبدا فتقول لي: لا يا بني لن أكون سببا في تعطيل دراستك،اذهب في حفظ الله، والذي نفسي بيده إني وددت لو كنتَ شخصين أحدهما يذهب إلى الجامعة والأخر يبقى معي. ولم أنتبه إلا وأنا في إرهاصات السفر. طلع الفجر واستيقظت باكرا ثم ذهبت إلى المسجد وصليت الصبح ثم قمت بتوديع "الأحباب" ثم انقلبت إلى المنزل حيث وجدت أمي تعد لي الفطور وما إن انتهيت من الفطور حتى اتصل علي صاحب السيارة الذي أريد أن أذهب معه فخرجت ومعي أمي تُشَيِّعْنِي أحمل أمتعتي وهي تقولي لي بعبرة: اعتن بنفسك يا بني فقلت لها: لا تقلقي سأفعل، وركبت فأغلقت نافذة السيارة عليَّ وتنفست الصُّعَدَاء وقلت في نفسي هذا المساء سأفد على مدينة انواكشوط جو لطيف ورب غفور.

كان الوصول لانواكشوط في الساعة السادسة مساءً تقريبا، دخلت المدينة وأنا كالمولود عند ولادته لا يعرف أحداً، ولا هو يعرفه أحد، كنت خائفا بعض الشيء وقلقا لأنني أفد إلى بلدة لا أعرف بها أحداً، قلت للسائق لن تبرح الأرض حتى آذن لك أو يأتيَني خالي. اتصل على الخال، وطلب منه أن يدله على المكان الذي ينتظرنا فيه. دله على المكان فاستبشرت بذلك بشرا بالغا، وما هي إلا هنيهات حتى وصلنا إلى الخال، فوجدناه ينتظرنا قرب كرفور مدريد، ولسان الحال يحكي قصة (طلع البدر علينا

من ثنيات الوداع). فخرجت من السيارة مهرولا فعانقت الخال بكل بهجة وسرور فانطلق بي إلى دار عمه.

كانت الساعة السابعة مساء، وكان الجو العام للعاصمة يُغازله شيء من البرد وكنت أشعر بتعب وخوف شديدين. ولما وصلنا إلى مضرب عمي ورحبوا بنا ترحيبا حارا وقدموا لنا كؤوس الشراب (ازريك) وذلك عادة الموريتانيين ثم انتهى العشاء، خلدت نفسي المسكينة جراء وعثاء السفر وطول الطريق إلى النوم لتذهب روحي إلى بارئها وتتجول في بساتين الأحلام والرؤى الجميلة. ولما كان صباح غدٍ غدوت أنا والحسن بن امبارك أحد رفاقي المقربين إلى الجامعة لأراها لأول مرة في حياتي كانت حقيقة زيارة ممتعة بعض الشيء حيث تجولنا في الجامعة في كل أروقتها وأوقفني على جميع الكليات يسمي لي كل كلية باسمها فاندهشت اندهاشا شديدا عند رؤيتي لمباني الجامعة الشاهقة الجملية وكأن قول القائل حين يبصرها "كأن جن سليمان الذين ولوا إبداعها فأدَقوا في معانيها" وعندما قضينا حاجتنا من التجوال في الحرم الجامعي وتنشقنا شذى جدرانها وقطفنا أزهار ألوانها الخلابة عدنا أدراجنا قاصدين خاله الذي كان يقيم معه فَقِلْتُ معه، وفي المساء ذهب معي إلى المحطة ليودعني ولسوء حظي نسيت المحطة التي ركبت منها صباحا متوجها إليه فلبثت أمدا غير طويل وأنا بين خوف ورجاء والليل قد أرخى سدوله ليغطي العالم

بظلامه شيئا فشيئا ينزع الضوء عن جسمه ليرتدي الظلماء حتى دارت بخلدي فكرة وهي أن أتصل على فاطمة بنت عمي أطلب منها أن تأتيَني، ولكن للأسف كانت لا توجد في البيت، فازددت خوفا على خوفي وما هي إلا لمحة بصر أو أقرب حتى مرت بي بنت عمي الأخرى "أم الخير" حيث كانت تتمشى قليلا هي وصويحبات لها وقفتْ بجانبي قائلة لي : الحسن ما خطبك؟ أخبرتها على عجل بما كان مني فتبسمت عن لؤلؤ ومرجان ضاحكة هيا بنا إلى المنزل أنا دليلتك ولسان الحال يحكي قول الله عز وجل: (لا تخف نجوت من القوم الظالمين)، ثم مشيت مثل الصبي وراء دليلتي حتى وصلت المنزل ...

صاح الديك ليؤذن عن انبلاج الفجر فصعد المؤذن على المأذنة ليدع الورى إلى صلاة الفجر فانتفضت من فراشي انتفاضة العصفور بَلله ماء . ثم توضأت وذهبت إلى المسجد لأداء صلاة الفجر ثم ارتديت ذاك القميص الذي لا يتعدى الساقين ووضعت فوق جمجمتي قلنسوة ولففت رأسي بقطعة من القماش حيث صرت ملثما أمثل بحق صورة الملثمين التي كانت تطلق على هذه الأرض قديما. ثم خرجت إلى الجامعة وعندما وصلت جعلت أسال عن قسمي فدلني أحدهم على القسم وحين دخلت القسم وجدت الطلاب أخذوا أماكنهم والأستاذ قد شرع في شرح الدرس كان الأستاذ تبدو على صفحات وجهه الوقار والسكينة وكان الطلاب

يجلسون أمامه جلسة المتعلم آخذين أقلامهم ناثرين أمامهم قراطيس يدونون فيها كل ما خرج من فم الأستاذ فجعلت أطلق بصري ذات اليمين وذات الشمال لعلي أرى فرجة فأجلس فيها. وأخيرا وجدت كرسيا فجلست عليه ومضى يومي بخير وعافية ثم أرادت الأيام أن أتعرف على أولئك الشباب الذين كسوا نفسي بألوان الأُخوة والمحبة حيث كنت أشعر بشيء من القلق والوحدة النفسيين فألفيت من ذلك طعما لجسمي وبلسما لجرحي فوراءكم "العبقري" ذاك الفتى الخلوق الطموح، إنه يشبهني في كل شي ولولا أني متأكد أننا لم نلتق في السابق لقلت إنه توأمي. أما "لمرابط" فإنه شاب حيِيٌ تبدو عليه إشارات النجابة والعرق الأصيل حيث ينتهي نسبه إلى قبيلة من أقدم قبائل موريتانيا ذات الحسب والنسب وأما "كليب" فَمِلْئُهُ النقد غير الهادف والسخرية من الزملاء والأساتذة . ولكنه طيب القلب عزيز النفس إلا أن الصفات الأولى تغلب عليه في أغلب الأحيان ، أما أم الزهراء وما أدراك ما أم الزهراء؟ فهي مريم في العفة ويوسف في العفوِ، عندما لقيتها أول مرة انتابني شعور غريب وما أزال إلى الآن عاجزا عن وصفه. وأما "حنان" تلك البنت الأديبة ذات الأخلاق الرفيعة. أما "أُمَّانَه" فهي فتاة طيبة الخلق حسنة المعاشرة لا تواجهك إلا بما تحب. وأما "بلقيس" فهي ليلى زمانها حسنا وجمالا ، كانت أم الزهراء تَرْقبني عن كثب ولا زالت على تلك الحالة حتى جاء اليوم الذي قالت فيه

ما اسمك؟ رأيتك تركب في نفس "الباص" الذي أركب فيه . قلت متعجبا: حقا لم ألحظك قالت مضى علي أكثر من يومين وأنا أراك .

جاء الأستاذ وبدأ الدرس ولما انتهت الحصة وانفض التلاميذ ذهبت مهرعا كعادتي إلى المحطة خوفا من أن يفوتني "الباص" ولكن لم أنتبه إلا وأنا جالس على كرسي بجانبها وكانت معها فتاتان أعتقد أن إحداهما أخت لها وأما الثانية ربما تكون زميلة لها فاستأنفنا الحديث الذي قد دار بيننا في القسم وقد قطعه علينا الأستاذ من أي منطقة أنت؟ أجبتها من "گرو" قالت: عجيب! أتعرف رجلا يدعى أبو بكر بن بلال يقيم هناك قلت: نعم إنه زوج خالتي ، وما علاقتك به قالت ذاك ابن خالتي فأعدت السلام عليها مرة أخرى أكثر اهتماما من الأولى قائلا مرددا تشرفت بمعرفتك كثيرا، قالت وهي على خلق عظيم: وأنا كذلك تشرفت بمعرفتك، ودار بيننا أحاديث مختلفة في شتى الأمور . ومنذ ذلك اليوم صارت أحبال الصداقة بيننا تنمو كما تنمو البذور في التراب وتكبر حيث أصبحنا مثل الثوب للجسد نغدو ونروح معا، ثم استمرت الأيام حتى طرق زائر لم أكن أنتظره باب قلبي ذلكم الطارق هو العشق، نعم إنه العشق الذي لا يستطيع أن ينجو من حبائله أحد مهما كان وأنا الذي كنت أقول لزملائي حين يرمونني به إنني بريء منه براءة الذئب من ابن يعقوب، وكيف لا أقع في حبها وهي ذات دين وجمال. وكنت في مستهل

أمري أكاتم نفسي، ولكن الحب كالنور لا يمكن ستره ولا كفره ففضحني فإذا بزملائي ينتبهون إلي وربما أشاروا إلي إشارة أو لمحوا إلي تلميحا وأنا أجحد بها وتستيقنها نفسي، وعندما أخلو إلى نفسي أقول لها ما هذا الذي تحاولين أن ترميني فيه. فتناجيني قائلة استمع لصدى فؤادك ثم اتبعه، وكانت أم الزهراء تظهر لنا الاهتمام الذي إن دل على شيء فإنه يدل على مبادلتها إيانا الشعور الذي نشعر به اتجاهها، وكنت أعرض لها العبارات العاطفية وربما الغزلية فتبتسم من قولي خجلة كعادتها ولا تقول شيئا، فكان ذلك يبعث في نفسي شعورا بالغا، وذات يوم كنا قافلين من الجامعة قالت لي إنها متزوجة وأن لديها طفلة فسقط في قلبي وسقطت السماء على هامتي وصرت أكفكف عبراتي وهي لا تشعر. وما هي ألا أيام حتى تجلى لي ان ما قالت لي ليس له نصيب من الصحة فثاب إلي شي من رشدي.

وذات يوم نادينها نداء خفيا أم الزهراء إني أشعر بإحساس غريب تجاهك وإن أردت الصراحة ربما يصل إلى مرحلة الوله والمودة. ولكن قبل أن أعرف شعورك أنت اتجاهي لا بد أن تخبريني عنك وعن حياتك العاطفية ، وهل يا ترى من سبيل إلى ما أرومه منك! . فناجتني وأنا بمحراب الانتظار حيث سحائب الأمل تترى وهي مُغْضَبَة : عليك أن تعرف قدرك

وتلزم حدودك فسقط في يدي وتلعثمت في كلامي وسقطت سماء على هامتي ثم انتفضت انتفاضة العصفور بعدما بلله الماء قائلا سلام عليك.

ومنذ ذلك اليوم اشتعلت بيننا نار الفراق ولبثت قرابة شهر لا تكلمني وكنت إذا لقيتها مع الزملاء أسابقها السلام فترد مبتسمة تبسم المغضَب وعندما أنظر إليها توليني ظهرها وعندما أصرف عنها النظر تنظر إلي وربما قلت في نفسي متسائلا متعجبا. هل حركت شفتيها للرد علي أم لا؟!

ولما ضاقت علي الأرض بما رحبت وتنكر الوجود لي وأصبحت أرى كل وجه حولي عبس لي، فزعت إلى زميلتي وإياها "أُمانه" فتوسلت لي وشفعت لي عندها فعادت علاقتنا يشع منها النور، ولكن ذلك النور لم يتجاوز الزجاجة... وأنا الآن على اتصال بها وأطمع أن يعود ما كان بيننا من المودة ولو بعد حينٍ. ثم إنني لست أنسى لحظات جميلة قضيتها رفقة الزميل العزيز " العبقري " إذ كنا نذهب دائما إلى سوق Bmd من أجل التسوق فنأتي إلى المكتبة فنظل نجول هنا وهناك بين رفوفها الزاخرة بالكتب المختلفة العناوين، وفي بعض الأيام يدعوني إلى منزل أهله فأظل أرْفل في ضيافته وإكرامه وكان لنا صاحب يبيع "ساندويج" في جانب المتحف الوطني وكنا نأتيه خصيصا من أجل أن

نشتري "الساندويج" وكان ذاك البائع طيب المعاملة معنا بشوش المحَيَّى يردد دائما "برد قلبك" يا لها من لحظات رائعة قضيتها مع ذلك الأخ المخلص، وأما إذا تكلمت عن "حنان" فحدث ولا حرج، تلك الصبية التي لا تفارق الابتسامة ثغرها كأنه ينحدر منه جُمَّان ويفوح منه ريحان لولاها لما استطعت تجاوز سنتي الأولى من الجامعة، كنت كلما شعرت بحزن أو سأم فزعت إليها مثل الراهب إلى صومعته وجدتها مفتحة لي قلبها تقص علي القصص والحكايات الطريفة والمسلية حتى أنام كطفل في ذراعي أمه إنني حين أتحدث عنها تنفد كلماتي وتنكسر أقلامي وأنا لم أف بشيء من حقها، ولست أنسى "أمانة" وكيف لي ذلك؟ سأنساها إذا طارت الأسماك في الفضاء وسبحت الأطيار في البحر، إنها الصويحبة الحميمة "لأم الزهراء".

أول يوم التقينا كانت برفقتها فعرفتني عليها قائلة: هذه صديقتي فلانة فقلت : تشرفت. وعندما انصرمت السنة ا لدراسية عدت إلى مدينة "كرو" وأنا منكسر القلب حيران الجوانح رَثَّ التفكير ولم يكن يسليني للقدوم على المدينة شيء سوى أمي لأنني كنت حينئذ قد قطعت حبال المودة بيني وبين "أم الزهراء" وتمادى بها الأمر حتى لم تودعني وكان ذلك صاعقة علي.

كان الشباب مجتمعين مسرورين يلتقطون الصور وكنت معهم ولكنني لم أجد لذة لتلك اللحظات بسبب الحزن وانشغال قلبي في التفكير بما كان من أمرها، إلا أنها كعادتها لم تكن تظهر الغضب كثيرا لحسن أخلاقها واستمرت بي الأيام حتى طلعت علي الشمس بعد ليل طويل وإذا بي أفتش في الهاتف هنا وههنا عن رقمها على الواتساب. رأيت رسالة واردة منها " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" فطار قلبي من الفرح وتلعثمت أصابعي على لوحة المفاتيح ثم سكت عني الفرح فحييتها "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته أهلا وسهلا بك كيف حالك"، ثم شكرت الله ثم شكرت "أمانة" لأنها كانت حكمة بيننا وبفضل الله تعالى نجحت في ذلك .

وبينما أنا في نشوة صلحي مع "أم الزهراء" إذ طرق حياتي شخص كنت أظن أنني سليت عنه ولم تعد بيني وبينه أية رابطة، ولكن هيهات شأن القلوب شأن مضطرب مختلف متباين كفصول السنة.

كنت في سمر مع زميلي "محمدي" أخذت الهاتف فبدأت أفتش فيه حتى وقعت عيني على رقمها، وبدون أن أشعر ضغطت على رقمها رنَّ الهاتف فاستقبلتني فبادرتها بصوت حنون: السلام عليكم، ردت وعليكم السلام ورحمة الله ثم قالت لي وهي مثل المعاتبة : لم هذا الجفاء؟ لقد طال غيابك عنا، من أمد وأنت لا تزورنا ولا نلتقي منك إمارة حب ولا

اهتمام ، تنفست مليا، ثم استجمعت كل ما أوتيت من رومانسية وغُصْتُ في أعماق طيات كتب ومعاجم الغرام لعلي أجد جواب يناسب المقام، ثم قلت لها دعي الماضي خلفك ولنبدأ قصة جديدة لنفتح عالما جديدا مفروشا بالسجاد الأحمر والورود ... عالما تكونين فيه ملكة وأكون فيه خادمك المطيع. تعالي بنا إلى الروض لنستنشق عبير الأزهار ونرقص ونغني مع البلابل حيث نكتب حبنا على أوراق الأشجار وعلى هبَّات النسيم ...فقبلت بذلك واستمرت علاقتنا أحلى من العسل وأشهى من الخمر المعتقة.

وبعد أيام من صلحنا طلعت شمس مسابقة الباكالوريا وكنت قد وعدتها أن ألتقي بها يومئذ، فذهبت لزيارتها.

ولما التقينا وسلم كل منا على الأخر صار قلبي يدق دقا عنبريا. إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بالضعف أمام شخص ما لا أدري لماذا بالتحديد؟ ليس لديه ما يخيف لا مسدس ولا سيف إلا تلك النظرات البريئة ... ياليت الرياح توقفت والشمس كذلك وعقارب الساعة توقفت هي الأخرى كي أعيش تلك اللحظات بكل ثقب من جسدي ...

ثم صاح بي غراب البين ليبدل مكان الفرح حزنا ومكان الابتسامة كآبة ، أصبحنا نختلف على أتفه الأشياء، وأوهى الأسباب .

كلما دخلت حديقة هذه الدنيا ومددت يدي لأقطف منها وردا أبدلتنيه شوكا، وكلما أردت شرب عسل فيها سقتني بدله علقما، وأنا الذي كنت مخلصا لها في السر والعلانية والليل والنهار وضَحَّيت بأغلى ما أملك من أجلها، ولست أرى شيئا أثمن عندي من نفسي التي بين جنبي ولو اقتضت الحاجة أن أقدمها في سبيل إرضائها لفعلت ، ولكن هيهات أيتها الدنيا سأتركك لنفسي من أجل نفسي، لأنني لما نظرت في حالي وحالك أدركت أنه من الأفضل أن أتركك لكي تجدي حظك مع غيري ولو لم أجد حظي مع غيرك... ولكن عديني قبل أن نفترق بأنك ستعتنين بنفسك لأن نفسي معلقة بنفسك... وداعا... وداعا... وداعا...

وأصبح فؤادي فارغا إن كدت لأفقد قواي السيكولوجية والفيزيولوجية من هول الموقف لولا أن السنة الدراسية بزغت شمسها، فتوجهت إلى مدينة نواكشوط وأنا أسلي نفسي وأمنيها بأني قد أُلْفِي "أم الزهراء" وتنسيني ما حدث.

كان وصولي العاصمة مساء عند أذان صلاة المغرب، ثم وصلت المنزل بعد صلاة العشاء، كنت حينئذ منهكا أشعر بتعب جسمي وقلبي شديدين ، ثم غصت تلك الليلة في سبات عميق ولم أشعر حتى أيقظني عمي "سيدي" ، وبعد صلاة الصبح تيممت الجامعة كنت أظن أنني جئت

باكرا، ولكنني وجدت طابورا ممتدا من الطلاب مثل الناس عند حوانيت "أمل"، فسجلت اسمي في القائمة ، ثم ذهبت أتجول في الجامعة رفقة أحد الزملاء وأقول مناجيا نفسي : وأخيرا هاهي الجامعة مضى علي شهران وازدادا خمسة عشر يوما وأنا لا أرى الجامعة.

وبعد أن أنهيت التجول في الجامعة وقفت عند مدخل الجامعة وقفة المنتظر، وما هي إلا هنيهات أو أقرب حتى وفدت علي بابتسامة مشرقة تخجل الشمس "أم الزهراء وحنان وأُمَّانة"، فسلم كل منا على الأخر وتعالت الضحكات وتبادلنا أطراف الحديث كل يسأل : كيف حالك مع العطلة...؟

وكنت طوال الوقت أرمق أم الزهراء بعين الحب والغرام وتسافر بي الأحلام إلى عالم ترصعه جواهر اللؤلؤ والمرجان وأقول في قرارة نفسي تارة أنا في حلم ثم أخاصمها تارة أخرى لِيَكن عسى أم الزهراء أن تحدث بعد ذلك ما يسرني، وربما تعطيني فرصة أخرى ، ثم لبثت شهرا إلا خمسة أيام وأنا في ذلك الحلم الجميل إلى أن استيقظت منه فزعا، فإذا بالديار خلت من حولي ولم يبق بها إلا بعر الأرام.

وبينما أنا جالس في القسم أنتظر قدوم الأستاذ إذ سمعت صويحبات أم الزهراء تتحدثن عن شأن خطبتها وأصغيت لِيتا، فكان وقع الخبر على

أذني كسكرات الموت على المحتضر، فما زلت أتململ وأعالج نفسي حتى استطعت الوقوف على قدمي، فوقفت عليهن ولم أتفوه بكلمة واحدة ولكنهن فهمنني لأن تحديقي يدل على ما في خلجات صدري فقالت إحداهن ضاحكة: يا صديقي لا تبتأس الخبر كما سمعت آنفا، فأمسكت بيد زميلي وانطلقت مسرعا وقلبي يفيض من الدمع حزنا كالمزن فمكثت غير بعيد ، ثم ناجتني نفسي قائلة لي: ما هذه الدموع التي تذرف؟ أهي دموع فرح أم حزن؟ فقلت لها :تريدين الصدق ، تالله لا أداري، فقالت لي: امسح دموعك وافرح من سويداء قلبك واعلم أن الانتصار في الحب لا يكون بالظفر بالمحبوب فحسب. وإنما يكون بسعادة المحبوب فقط ولو كان مع غيرك.

لطالما أتحفتنا الحياة بأشخاص مميزين وسرعان ما يدخلون على حياتنا بلا استئذان فيحدثون فيها تغييرا كالذي يحدث المطر للأرض فيذرها متحلية بأثواب قشبة بعد أن كانت ساهرة مُمْلحلة مجدبة، ويشرعون بإلقاء الحبوب والبذور في تلك الأرض، ويقومون بقطف كل الأعشاب والشوك منها، أولئك الأشخاص كالنحل يبحث عن أطايب الثمار ليهدي الآخرين شهدا مصفى، بل هم كالنخيل يتعرض لشح الحرث والري ثم حرارة الشمس وهبوب الرياح العاتية بعد هذا كله ينتج لنا البلح والتمر اللذيذين إنهم يشبهون الخباز يستيقظ ثلث الليل الأخير وتارة نصفه من أجل

صناعة الخبز، ويلبث في معمله أمدا بعيدا يعالج الخبز، حتى إذا أسفر الصبح عن وجهه، وجئت إلى المخبرة تجد خبزا نقيا طازجا ، فيا رب اجعل أولئك القوم رفقاء دربي دائما وابدأ....

ولا يزال "العبقري" الفتى الهُمَام والشَّاب الطموح الذي أخضع الظروف بعزمه وأوهاها حتى جعلها ثوب حرير.

لقد حصل على "الباك" باستحقاق فتسنم هام النجاح، وتقلد وسام التفوق حتى غدت "مدينة لعيون" مزينة الشوارع، مفرشتها نمارق وورود يفوح منها عطر نجاحه في سمائها، وحتى الأطيار فرحت بذلك الشبل، ولا عجب فقد نسل ذلك الشبل من أسرة محترمة تعيش على الأخلاق والقيم الفاضلة ...

وأما الآنسة "جالو" فبيت التواضع والأخلاق الرفيعة والطموح الجاد ذات يوم سألها الأستاذ ما الذي حداك إلى تخصص اللغة العربية، فأجابته بكل براءة أحبها فحسب!

كانت تلك الكلمات كالسلسبيل تخرج من قلب صادق، وعندما أكون بجانبها أستشعر إنسانيتي.

يكفيني أن تكوني سعيدة ولو كنت مع غيري..

ولكن عديني قبل أن نفترق بأنك ستعتني بنفسك لأن نفسي معلقة بنفسك ... وداعا.... ودعا .... وداعا.....

ومازالت الذكريات الجميلة التي عشت معها تمتطي صورة فؤادي لتغادر رويدا رويدا تاركة ورائها فراغا لا أجد له مسدا، كأن لم يكن بيننا شيء حتى الصداقة حرمتنِها.

عندما تطرقني خيالي أيتها الأم العظيمة زائرة أتذكر طفولتي شريطا شريطا ثم تعاودني كلماتك الحنونة حين أعود إلى المنزل متأخرا أين كنت؟ لقد عدت متأخرا فأقول لك مبتسما : يا أماه يا حبيبتي أنا لست طفلا!!

لقد أصبحت بفضل الله رجلا! فتقولين لي مهما كبرت يا بني فما تزال طفلا في نظري! .

لست أدري إن كان الزمان سيعيد نفسه أم لا! ، غير أنني أعلم شيئا واحدا وهو أنني عندما لقيها هذا الزوال شعرت بشيء غريب لم أستطع تحديده بالضبط، كانت لحظة لقائنا غير مؤقتة ،فجأة مرت أمامي كالقمر ليلة أربع عشرة ولسان الحال ينشد: "ما أطيب اللقيا بلا ميعاد.."

أحيانا أظن أنني تخلصت من حياتي الماضية وبدأت حياة جديدة وبينما أنا أسبح في ذلك المستنقع فإذا بي أخرج منه صفر اليدين مهرعا إلى حياتي الماضية.

ما أجمل أن تتصل على شخص كنت تكن له المودة من سنين وتعترف له بكل ما يدور في خلجات قلبك، وما يجول في أعماق نفسك، وهو

يستمع إليك تشعر كأن كلامك يخترق الهاتف ويصل إلى قلبه ، ثم تواصل التبتل والتحنث في محراب انتظار رده الفرح، فينفجر باكيا كطفل يفتقد أمه... ليناجيك بنفس الشعور.

جلست غير بعيدة مني فأخرت هاتفها ببنان يكسوه الخضاب وجعلت تفتش فيه بعينين حوراوَين، ووجه ملائكي، نظرت إليها فجاشت بنفسي ذكريات وعواطف كنت أَخَال أنني نسيتها، وسلوت عنها.

كلما حاولت صرمها والنأي عنها لقيتها فجأة بغير ميعاد فتعود تلك الإزماعات برقا خلبا ... وأُصبح أشعر كأنني شخص آخر وأن الذي كان يتوعد بالأمس... سأفعل .... وسأفعل ... ليس أنا.

هناك أشخاص نتظاهر بنسيانهم، ولكن حقيقة الأمر أنهم لا يفارقوننا حتى وإن لم يكونوا معنا بأجسامهم فهم معنا بقلوبهم، وبصمات عنبرية أفاحوها في حياتنا، ذلك أن لغة القلوب لا يفهمها إلا من ذاق طعم المودة الصادقة المخلصة الطاهرة العفيفة، التي لم يدنس أهلها الشيطان، وإنما هي أحاسيس تجتمع في مكان مقدس يسمى الفؤاد...

انتهى

ملحوظة :

قام بمراجعته والتعليق على نصه "العبقري"